المحاضرة السابعة	قصيدة المديح في الشعر العربي القديم	جرير ، البحتري

يصف لنا الباحث شوقي ضيف طبيعة المديح في العصر العباسي وما بقي فيه من ملامح المديح في القصيدة الجاهلية وما طرأ عليه من ملامح التجديد في قصيدة المديح في العصر العباسي، فيقول:" شعراء العصر العباسي الأول، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقًا وسعةً وتنوعًا، وظلَّت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة تزداد خصبًا في هذا العصر، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفة أو واليًا أو قائدًا تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة، وكذلك الفضائل الإسلامية، وتمثلوا أيضًا العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان، ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد"([1]).

لقد ظهرت تراكمات عقدية ومذهبية وفكرية وسادت في العصر العباسي أسهمت في تشكيل الأنا الشاعرة ووعيها ومفردات لغتها الشعرية، وأدت كل هذه التراكمات إلى إحاطة الممدوح بهالة من التقديس، وأسهمت بشكل كبير في رسم صورة الممدوح/ المقدس عبر مجموعة من التراكمات النصية التي تناصت وتفاعلت وتشربتها نصوص الشعراء، وقدكانت دافعًا لمديح خرج عند بعض شعراء العصر العباسي عن حدِّ المديح المستساغ .

المدح و أنساق التقديس:

المديح السياسي عند جرير[2].: الكتابة الشعرية وأفق الخوف

حار النقاد في الحكم على شعر جرير وتفضيله، فبعضهم يرى أن شعر جرير هو ذلك الشعر السهل في ألفاظه الميسور في معانيه ودلالاته وهو ما جعله سائراً متمكناً في وجدان العامة، لكن هذا الرأي إذا سلمنا بصوابه لا يمنع اهتمام الخاصة به ومتابعتهم له تماما كما هو حظ غيره من الشعراء الأقران.

والقارئ لشعر جرير والذي غلب عليه موضوع الهجاء والمهاجاة يجده ذا لغة متينة وقوية بعيدة عن الإغراب إلى حد كبير، وتميز أسلوب جرير بتوجيهالخطاب مباشرة نحو المخاطب المهجو وحفل شعره بصور بلاغية قائمة على

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص 204.

2 – هو الشاعر الأموي جرير بن عطية الخطفي التميمي ، ينتمي الى قبيلة كليب بن يربوع التميمية العدنانية .ولد جرير سنة 30هـ في خلافة عثمان بن عفان τ في قرية من قرى اليمامة في الجنوب الشرقي لهضبة نجد وقد قيل إن امّه . وهي حقّة بنت معبد الكلبية . قد أسمته باسمه هذا ، والغالب على ظننا أنها من حبك الرواة ، الذي اخترعوها ليبرروا تسمية شاعرنا بهذا الاسم.

التشبيهات والاستعارات وبعض الكنايات، كماعتمد على مصطلحات ومسميات مكروهة وظفها في هجائه تجاه الخصوم، حتى إنه وصل في بعض الأحيان إلى حالة الفحش والإقذاع والإيلام. [1].

كان جرير لا يعرف من الشعر إلى أوائل عصر الحجاج (75-95هـ) – سوى الفخر والهجاء ، فحين دخل هذا العصر ، وانتقل حكم العراق إلى الحجاج قدِمَ جرير إلى ابن عمه وصهره الحكم بن أيوب الثقفي ، فمدحه برجز، إذ قال :

خليفة الحجاج غيرُ المُتَّهمُ في مَعْقِدِ العزِّ وبؤبؤ الكرمْ

فأُعجب بشعر جرير ، فما كان منه إلا أن كتب إلى الحجاج يخبره عنه ، فكتب إليه : أن ابعث به إليَّ . فذهب إليه جرير . فأكرمه الحجاج ، فطاب لجرير المقام فأقام عنده يمدحه بشعره ، من ذلك قوله :

مَنْ سدَّ مُطَّلعَ النفاقَ عليكمُ أم مَنْ يصولُ كصولة الحجَّاجِ

داويتَهم وشفيتهم من فتنةٍ ج غبراء ذات دواخنٍ وأُجاجِ

ولقد كسرتَ سِنانَ كلُّ منافقٍ ولقد منعتَ حقائبَ الحُجَّاج

وجرير يمدحه بالصفات التي تفضلها العرب ، من شجاعة وإباء وكرم ..الخ.

وفي مركز الخلافة الأموية دمشق ،كان عبد الملك بن مروان يستقبل الأخطل في مجالسه ، وكانت أشعار جرير في مدح الحجّاج تصل إليه في دمشق ، وكانت تروق له ، ورأى الحجاج أن يهديه إلى الخليفة ، ووجد عند جرير رغبةٌ في الذهاب لمقابلة الخليفة ، فصحبه معه الحجاج في إحدى زياراته إلى الخليفة ، فاستقبله الخليفة ، فبدأ بأنشاد الشعر،فأنشد مدائحه في الحجاج واحدة بعد الأخرى فأنشده قصيدته التي يقول في أولها :

تعزَّت أمُّ حزْرةٍ ثم قالت رأيت المُوردين ذوي لقاحِ

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال :

1 – عبد الكريم حسين رعدان البعد البلاغي في شعر جرير الهجائي (دراسة بلاغية نقدية) مجلة جامعة الناصر العدد الأول يناير- يونيو 2013م ص36

وإني قد رأيتُ عليَّ حقّاً زيارتي الخليفة وامتداحي

ألستم خير من ركب المطايا وأندَى العَالمين بطونَ راح

وقد أعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً ، فأعطاه مائة من الإبل ، وثمانية من الرعاة، ومِحْلباً من فضة .

استطاع جرير أن ينفذ إلى قلب الوليد عبد الملك وأن يحتل مكانة خاصة ، فبدأ جرير بمدحه ، من ذلك قوله :

إنّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى بالنّصر هُزَّ لواؤه والمغنمِ

يموت بعد ذلك الوليد وتؤول الخلافة إلى أخيه سليمان ، فيفدُ عليه مادحاً إياه ، وناعتاً له بأنه المهدي المنتظر، فيقول :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهديُّ قد وَضُح السبيل

ومن ثَمَّ يمده ابنه أيوب ، لظنه أن الخلافة ستصل إليه ، إلا أن سليمان نقل الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، وقد عُرف بزهده وتقواه ، فأوصد أبوابه عن الشعراء إلا جريراً ، فقد قرّبه منه ، فأخذ جرير يمدحه ، فقال :

أنتَ المبارك والمهديُّ سيرتهُ تعصِي الهوى وتقوم الليل بالسُّوَرِ

ويقول في مكان آخر :

إنّ الذي بعث النبيَّ محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل

كان الحرمان من العطاء يعني الموت من منظور من يحرم منه.

يصرح جرير:

مَنعْتَ عطائي، يا ابن سعد، وإنما سبقت إلي الموت، وهو قريب

لقد استولت الدولة على الخراج الذي يرتفع من الأرض والناس، ...وكانت توزّعه أعطيات تستطيع أن تمنحها بالمقدار، وإلى المدى، الذي تشاؤه وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً"[1].

و الطمع شكل من أشكال الخوف، من فقد جوائز السلطان والموقع والمكانة. والاحتراف عنا يعني توظيف الشاعر قدراته الشعرية في خدمة السلطان القائم: "من كان الله معه"، من دون أي اهتمام بمبدأ، ومن دون أن يكون له موقف خاص، وخوفاً من فقد الدنيا المطلوبة: وجوداً وحرية ورزقاً وكرامة ومكانة... وثروة...

وكان الشعراء يعون وضعهم وطبيعة العلاقة التي تقوم بينهم وبين السلطان، فنقرأ لجرير قوله:

...سأشكر أن رددت علي ريشي　　　وأنبت القوادم في جناحي[2].

الاحتراف، هنا، يعني أن يقوم السلطان بـ "رد ريش الطائر، وإنبات القوادم في جناحه". والاستعارة تعني، هنا، أن الطائر هو الشاعر، وهل من طائر من دون ريش!؟ وإذ يفعل السلطان ذلك، يطير الطائر– الشاعر، مغرداً بالشكر، وبهذا يفقد الشاعر تجربته الشخصية، ذاته، ويرتهن للسلطان، فيفقد قدرته على إبداع شكل جديد للقصيدة، ويستعير الشكل الرائج، وهو شكل القصيدة الجاهلية ليصب فيه معاني المديح، لأن هذا الشكل يضمن لشعره ما يريد منه، وهو الذيوع والانتشار والتأثير في الرأي العام والاسهام في تشكيله، لأن أصحاب هذا الرأي كانوا يقبلون على هذا الشعر لأسباب كثيرة، منها: كان تراثهم الوحيد الذي استخدم في تأسيس العلوم الشَّرعيَّة وعلوم العربية والتَّأديب التربية والتعليم. وهكذا أفلت الأمر من يد الشاعر المحترف، فصار مرتهناً للسلطان من حيث المعاني، وللرأي العام من حيث الشكل الشعري.

مديح جرير نسق كلي(تكاملي) مركزها الممدوح:

كان الشاعر المحترف يجوِّد شعره، يجود المقدِّمات/ ويجوّد كثر من أشياء حياته. يقول جرير متحدثاً عن "انجازات" خالد القسري:

"لقد كان في أنهار دجلة نعمة　　　وخطوة جد للخليفة صاعد

جرت لك أنهار بيمن وأسعد　　　إلى جنة في صحصحان الأجالد

ينبتن أعنابا ونخلا مباركا　　　وأنقاء بر في جرون الحصائد

---

1 – فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، لجنة التأليف والنشر، 1958.، 42/2.

2 – ديوان جرير، بيروت: دار صادر، ص 76.

غير أنه يكتفي بهذا، ولا يكمل وصفه لهذه الأنهار والجنات الممتلئة خضرة وحباً، بل يمر بها هذا المرور العابر. وهذه ميزة من مزايا شعر المديح العربي تتكرر فيه، ويمكن القول:

إن هذا الوصف كان وسيلة لإعظام شان الممدوح، فكان الشاعر يكتفي بما يخدم غرضه ويساعد على تأديته، من دون أن يهتم بالتفصيلات التي لم تكن غايته وهدفه.

المدح عند البحتري:صورة الممدوح والمرجعية التراثية :

يعد استدعاء الشخصيات التاريخية والإنسانية والاجتماعية أحد الروافد المهمة التي أمدت صورة الممدوح في شعر الشعراء العباسيين بخير قليل من الملامح التي انصهرت في نصوصهم وذابت وشكلت صورة الممدوح في ذاك الشعر، ومن أمثلة ذلك ما رأيناه عند بعضهم من استدعاء لشخصيات الملائكة والأنبياء والصالحين لإضفائهم شيء من التقديس على ملامح ممدوحيهم، أو لإضفاء بعض صفات الكرم والسخاء والحلم والعلم، وسنفصل القول في هذا الرافد هنا لنبين مدى إسهامه في تشكيل صورة الممدوح ورسم ملامحها. ومن أمثلة ذلك قول البحتري يمدح عبدالله بن دينار، وكان أبوه من قواد المأمون، وأخوه يزيد من ولاة مصر عام 243هـ([1]):

أضَاءَتْ بِهِ الدُّنيا لنا بعدَ ظُلْمَةٍ وأَجْلَتْ لنا الأيامُ عن خُلُـقٍ رَطْبِ

وما زالَ "عبدُ الله" يُكْسَى شَمَائِلاً يَقُمْنَ مَقَامَ النَّوْرِ في نَاضِـرِ العُشْبِ

فتى يَتعَالى بالتَّوَاضُـعِ جَاهِداً، ويَعْجَبُ من أهلِ المَخِيْلَةِ والعُـجْبِ

له سَلَفٌ من "آلِ فَيْرُوزَ" بَرَّزُوا على "العُجْمِ" وانْقَادَتْ لهم حَفْلَةُ "العُرْبِ"

مَرَازِبةُ المُلْكِ التي نَصبَتْ بها مَنَابِرَهُ العُظْمَى جَبَابِرَةُ الحَـرْبِ

يُكِبُّوْنَ من فَوْقِ القَرَابِيْسِ بِالقَنَا وبِالبِيْضِ تَلْقَاهُمْ قِياماً عَلَى الرُّكْبِ

لهمْ بُنِيَ "الإيوانُ" من عَهْدِ "هُرْمُزٍ" وأُحْكِمَ طَبْعُ الخُسْرُوَانِيَّةِ القُضْبِ

ودَارَتْ "بَنُو سَاسَانَ" طُرًّا عليهِمِ مَدَارَ النُّجُومِ السَّائِرَاتِ على القُطْبِ

مَضَوْا بالأَكُفِّ البِيْضِ أَنْدَى من الحَيَا بَلالاً، وبالأَحْلامِ أَوْفَى من الهَضْبِ

فالشاعر يستدعي إلى صورة الممدوح أصوله الفارسية القديمة مجسدة في مجموعة من العلامات اللغوية ذات الملامح التاريخية مثل(آل فيروز) نسبة إلى فيروز بن بلاش بن قباذ أحد ملوك الفرس القدامى، و (هرمز) وهو هرمز

---

(1) انظر ما ذكره المحقق عنه في الحاشية بالديوان ج 1 ص 104. وانظر الأبيات بالديوان ج 1 ص 106-107.

بن أزدشير بن بابك أحد ملوك فارس، و(مرازبة الملك) و (بنو ساسان)؛ ومرازبة: جمع مرزبان، وهو الرئيس من الفرس، وهو يستدعي من خلال ذلك ملك المرازبة وارتفاع شأنهم في الجاهلية حتى صدر الإسلام، و (بنو ساسان) ينسبون إلى ساسان من بني كشناسب من الفرس أسسوا المملكة الساسانية، و (الإيوان) رمز الملك والحضارة الفارسية وعظمتها، و (القضب الخسروانية)، وهي السيوف المصنوعة في بلاد فارس نسبة إلى (كسرى)، وهذه كلها دوال تاريخية تتعالق مع بقية عناصر النص بمدلولاتها ومحمولاتها التاريخية القديمة الفائتة لتجسد في النص أبعادًا دلالية وظلالاً إنسانية وجمالية آنية في النص الشعري؛ فالشاعر يريد أن يرفع من شأن ممدوح (عبدالله بن دينار) ويدلل على مجده ومجد آبائه المؤثل والتليد.

وقد ورد استحضار الشخصيات التاريخية وتوظيفها في تشكيل الصورة والنص الشعري لديه كثيرًا في شعر البحتري؛ مما يعكس ثقافة الشاعر الواسعة وذهنه الثاقب الذي استطاع أن يستحضر كل هذه العناصر وغيرها ليعيد تشكيل الصورة الشعرية المفردة والصورة الكلية في النص، ومن أمثلة ذلك قوله يمدح يوسف بن محمد ويهدد أشوط بن حمزة أحد الخارجين على الدولة العباسية[1]:

ثَكِلَتْكَ كافرةٌ أَتَتْ بكَ فَجْرَةً ... ألا اجْتَنَبْتَ العارِضَ المَجْنُوبا

حَذَّرْتُكَ المَلِكَ الذي اجتمعتْ لهُ ... أَيْدِي الملوكِ قبائلاً وشُعوبا

ساداتُ "نبهانَ بن عَمْرٍو" أقبلوا ... يُزْجُونَ "قَحْطَبَةً بهِ و "شبيبا"

وجَحَاجحُ "الأزدِ بنِ غَوْثٍ"حوله ... فِرَقاً يَهُزُّونَ اللَّحَاءَ الشِّيْبَا

والصِّيْدُ من "أَوْدِ بنِ صَعْبٍ"إنَّهم ... باتُوا عليك حَوادِثاً وخُطُوبَا

والشاعر يريد أن يؤكد على قوة الممدوح واجتماع القبائل تقاتل تحت لوائه؛ فنراه يعود إلى تاريخ تلك القبائل فيستدعي آباءهم ورؤساءهم الذين ينسبون إليهم (نبهان بن عمرو) و (الأزد بن غوث) و (أود بن صعب) في إشارة إلى اجتماع آرائهم على تأييده، فاستدعاء الشاعر للآباء دليل على اجتماع القبيلة بكل بطونها، فتأييدهم له وقتالهم معه تأييد عام وشامل لكل بطون القبائل وفروعها، وهو إذ يستدعي تلك الشخصيات في رسم صورة الممدوح وتشكيل النص ككل يجعل هذه العناصر تتضافر مع نسيج النص وتنصهر في بوتقته لتتحول دوالها إلى مدلولات جديدة تضفي على شخصية الممدوح أبعادًا

---

(1) الديوان ج 1 ص 187.

جديدة؛ فهي تشكل الصورة الإيجابية للممدوح في الثقافة العربية، وتشكل البنية القوية للنص الشعري ودلالته الفنية والجمالية في آن.

وقد يضفي البحتري على شخصية الممدوح شيئًا من التقديس فينسبه إلى النبي وإلى البيت الهاشمي من قريش، خاصة وقد قام الصراع بين المتصارعين على الخلافة اعتمادًا على هذا الانتساب؛ لذلك نراه يستدعي هذا النسب في صورة الممدوح في النص الشعري لإضفاء شيء من التقدير والاعتبار المجتمعي عليه، ومن ذلك ما قاله في مدح أبي جعفر بن محمد بن علي بن عيسى القُمّي الكاتب، حيث يقول فيه(1):

مَلِكٌ أَغَرُّ لآلِ طَلْحَـــــةَ فخرُه　　　كَفَّادُ أرض سمحةٌ وسمــــــاءُ

وشريفُ أشرافٍ إذا احتكَّتْ بهم　　　جُرْبُ القبائلِ أحسنُوا وأســاءُوا

لهم الفِنَاءُ الرَّحْـبُ والبيتُ الذي　　　" أُدَدٌ" أَوَاخِ حـــــولَه وفناءُ

وخُؤُولةٌ في "هاشـــم" وَدَّ العِدَى　　　أنْ لم تكُنْ ولهم بها ما شاءُوا

بَيْنَ "العَوَاتِكِ" و"الفَوَاطِمِ" مُنْتَمى　　　يَزْكُو بِهِ الأخوالُ والآباءُ

فالشاعر يستدعي كل الإرث القديم والجديد لأسرة الممدوح من النسب والحسب ليشكل منها الصورة الكلية للممدوح؛ فالممدوح ينتمي إلى (آل طلحة) وما لهم من باع في قيادة الجيوش وإزجائها، وهو (شريف من الأشراف)، بل إنه له (خؤولة في بني هاشم)، وهو ينتمي إلى (العواتك والفواطم) وهنَّ جدَّات النبي محمد صلى الله عليه وسلم(2)، ولا شك أن استدعاء الشاعر لكل هذا النسب وهذا الانتماء يضفي على شخصية الممدوح كثيرًا من التقدير والاعتبار، فكل هذه الشخصيات يكون حضورها في النص بكل محمولاتها الثقافية والاجتماعية لتعيد تشكيل الصورة الكلية للممدوح.

---

(1) الديوان ج 1 ص 20.

(2) انظر ما ذكره المحقق بحاشية الديوان ج 1 ص 21، وطبقات ابن سعد ج 1 ص 61-63، والمحبر 47- 52 الذي عدَّ العواتك ثلاث عشرة والفواطم عشر. وانظر استدعاء البحتري للشخصيات الدينية بكل ما يحيط بها من ظلال دينية مثل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق بالديوان ج 1 ص 45 – 47، والعباس بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وسيرتهم ج 3 ص 1600.

ومن الأمثلة التي وظف الشاعر البحتري فيها شخصية حاتم الطائي بمضمونها الاجتماعي خاصة الكرم والسخاء، فيقول في مديح أبي أيوب سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين أخو الحسن بن وهب الكاتب وقد كتب سليمان بن وهب للمأمون وولي الوزارة للمهتدي سنة 255هـ ثم للمعتمد سنة 263هـ([1]):

لا يَتَحَظَّى كما احتجَّ البخيلُ، ولا يُحِبُّ مِنْ مالِهِ إلا الذي يهَـــــــبُ

حُلْوُ الحـــديثِ إذا أعطى مُسَايِرَهُ تلك الأعاجيبَ أصغَى الموَكِبُ اللَّجِبُ

لولا مَوَاهِـــــبُ يُخفِيها ويُعلِنُها لقُلْتُ ما حَدَّثُوا عن "حـــاتم" كَذِبُ

السؤال الإجمالي: يصف لنا الباحث شوقي ضيف طبيعة المديح في العصر العباسي وما بقي فيه من ملامح المديح في القصيدة الجاهلية وما طرأ عليه من ملامح التجديد في قصيدة المديح في العصر العباسي، فيقول:" شعراء العصر العباسي الأول، مع محاولاتهم الجادة في التطور بمعاني المديح عمقًا وسعةً وتنوعًا، وظلَّت رغباتهم ومحاولاتهم في هذه الإضافة تزداد خصبًا في هذا العصر، وهم في ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفة أو واليًا أو قائدًا تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة، وكذلك الفضائل الإسلامية، وتمثلوا أيضًا العدل الذي يعصم الحاكم من الطغيان، ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد

ناقش القول مبرزا مرجعيات وخلفيات شعر المديح في الشعر العربي مع التمثيل

خاتمة: بينا في هذه المحاضرة ما نظمه الشعراء في ممدوحيهم، وما رسموه لهم من هالة تقديس تشربت عددًا من النصوص والحوادث واستقطبت عددًا من الشخصيات التاريخية والاجتماعية بكل محمولاتها الدلالية التي انصهرت في بوتقة نص شعر المديح الأموي و العباسي وشكلت صورة الممدوح في ذاك العصر.

---

(1) الديوان ج 1 ص 172، وانظر الديوان ج 1 ص 169.